بسم الله الرحمن الرحيم

فلسفة الاتجاه الاجتماعي في الكتابة والنقد والبحث العلمي

أ. د. ندى موسى عباس الموسوي

مما لاشك فيه انه لا يمكن لأي كاتب أو مؤرخ أو ناقد أو باحث أكاديمي أو مصلح، أدراك المصداقية وتحقيق النسبة العالية في دقة نتائجه ومقاربة تحليلاته للواقع ، بدون أن يكون ذا فكر شامل واطلاع واسع لجوانب حضارية واجتماعية متنوعة في معارف وثقافات العصر الذي يبحث فيه؛ فالتقنيات والآليات المتطورة التي يستخدمها والبيانات التي يكدسها ليست هي الغاية بحد ذاتها، إنما هي وسيلة للوصول إلى نتائج وإثباتات تهدف إلى تفسير أبعاد ومكونات وظواهر الحياة الإنسانية، وعليه فالمدخلات السياسية والاقتصادية والثقافية(الفكرية والدينية والفنية) لها أثر بين في نتائج البحث الأكاديمي .

تجول الفيلسوف والمؤرخ اليوناني هيرودوتس ***Herodotes*** (425– 484 ق.م) في قارات العالم القديم (الثلاث)؛ فأسهب في وصف شعوب مدنها التي ساح بها، من حيث أخلاقياتها وطبائعها وعاداتها وطعامها ولغتها وديانتها وخصائص أجناسها، فضلا عن تاريخها وجغرافيتها وحتى بيئتها الفلكية. الأمر الذي دفع الكاتب والخطيب والمنظر السياسي الروماني شيشرون ***Cicero*** (43–106 ق.م) إلى ان يلقبه بـ " أبي التاريخ " ! هذا اللقب الذي علق به منذ ذلك الحين، والذي أستحقه عن جدارة[1].

ان تصورات الفيلسوف اليوناني أفلاطون ***Plato*** (347 –427 ق. م) عن تكون المجتمعات، قد جعلت منه مفكراً اجتماعيا رائعاً؛ إذ كان رأيه بان المجتمعات ما قبل التاريخ قد نشأت لأن الكائن البشري لا يستطيع الاكتفاء ذاتياً؛ فلا أحد يمكنه أن يكتسب جميع ضروريات الحياة بمفرده. وأذن فالمجتمع غاية حتمية لوجود البشر واستمرارهم في الحياة، وقد قسم أفلاطون طبقات المجتمع الضرورية لبناء أي مجتمع إلى فلاحين وبنائين وحرفيين ونجارين وصناع، وأشار إلى انه من الطبيعي ان تنشب بين أفراد هذه الطبقات بعض الخلافات هنا وهناك؛ فيكون وجود الحكومة ضروري وجانب مكمل للاختصاصات المذكورة، كما ان الدفاع ضد الأخطار الخارجية وقيادتها وأدارتها يتم من قبل الحراس والحكومة والقضاء كمهمات إضافية لتنظيم المجتمع[2].

يعد الأديب المسلم والمفكر الناقد والمؤرخ والمتكلم الجاحظ (159– 255 هـ/776– 868 م) أبرز وأهم من كتب بالاتجاه الاجتماعي في العصور الوسطى الإسلامية، وقد أظهرت ملاحظاته مديات لعمق فهمه، وحسن تفسيره وتعليله للعوامل المسببة لحوادث تاريخية بارزة وخطيرة، وكان من الذكاء بحيث تنبأ لعواقب بعض الظواهر الاجتماعية التي ملء بها كتبه ورسائله؛ وبهذا يكون قد ساهم في تنبيه وتطوير الوعي التاريخي عند المؤرخين، من خلال تقديمه لتأويلات وتعليلات فكرية وعقلية دقيقة لأسباب (وعلل) الحوادث ومسبباتها ونتائجها، والخروج بقوانين وتنبؤات، فقد تنبه على سبيل المثال لأوضاع الزنج المتردية الاجتماعية والاقتصادية؛ فأشار إلى أنها أوضاع تنذر بالخطر، وذلك

قبل عشر(10) سنوات من وقوعها(255– 270 هـ/869–883 م)، وبالفعل كانت من الخطورة اذ استمرت خمسة عشر(15) سنة، ولم تخمد إلا بشق الأنفس.

كذلك لاحظ الجاحظ ان المجتمع الإسلامي قائم على العوامل المعنوية والمادية؛ فالمعنوية هي المكانة للدين والقيم والأعراف، أما المادية فهي الثروة والملكية الخاصة والدخل، وهي برأيه كانت الأكثر تأثيرا في المجتمع. ولقد أبدع في تشخيص الصفات الاجتماعية المسببة للصراعات والعداوات بين أفراد المجتمع العربي في العصر العباسي، ومن أبرز هذه الصفات هي الحسد والحاسد، فانه رأى ان العداوة تنتهي والحسد غض جديد لا ينتهي، وسواء حرم أو أعطي فان صاحبه لا يبيد؛ فكل حاسد عدو وليس كل عدو بحاسد، وحسد الجاهل أهون شوكة وأذل من حسد العارف الفطن. فيما شخص الصفات المسببة للكراهية والعداوة؛ فهي باعتقاده الطمع والجشع والتملق والمتملقين والنفاق والمنافقين والاستغلال والمستغلين[3].

فيما تميز إخوان الصفا(عاشوا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) باهتماماتهم بالبيئة الأيكولوجية (الطبيعية) وأثرها على سلوك الناس في حياتهم الاجتماعية، وصنفوا المجتمع بتقسيمه إلى فئات اجتماعية بحسب مهنهم. ومن جهة اخرى نجد انه كل من الفيلسوف المسلم الفارابي(260– 339 هـ/874– 950 م) والفيلسوف والأديب والمؤرخ والطبيب والفلكي مسكويه(320– 421 هـ/932–1030م) لم يخفيا تأثرهما بآراء الفيلسوف أرسطو فمع ان الفارابي قد رسم صورة مثالية للمجتمع في مدينته الفاضلة، مشبه المجتمع بالكائن الحي (النظرة البنيوية) لكنه وفي خضم تحليلاته لحقيقة الاجتماع الإنساني في دوافعه الأساسية رجع إلى آراء الفيلسوف أرسطو(384–322ق.م) وقال: " ان الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه لا يستطيع الحصول على ما يريد من ضروريات حياته بمفرده". أما مسكويه فقد سبق معاصريه في رؤيته الأخلاقية للعلاقات الاجتماعية، وبين إنها تقوم على المحبة الضرورية لتآلف الكثير من الناس، موضحا تكوين المحبة وشدتها وأنواعها وسرعتها ودوامها، وكذلك بين أهمية اجتماع الناس وضرورته في المناسبات الدورية كالصلاة والحج والمآدب والأعراس والمآتم، لكونه مصدراً مهما للالتزام بالمحبة وبالشرائع والعادات والتقاليد في كل المجتمعات مهما تنوعت وأختلف طوائفها. ولم يفته ان يركز على رؤية أرسطو في توضيح العلاقة بين الحاكم ورعيته[4].

أبدى المؤرخ القزويني(600–682هـ/1203– 1283م) اهتمامه بالعلاقة ما بين الفرد والمجتمع وأسباب نشوء التجمعات والمراكز الحضارية، الأمر الذي يدفع نحو المقارنة لأوجه التشابه بين فلسفته وفلسفة أبن خلدون (732– 808هـ/1332– 1406م) رائد ومؤسس لعلم الاجتماع في العصور الوسطى الإسلامية، من حيث التقارب والتشابه في التحليل والتعليل للمواضيع الاجتماعية والحضارية، ولاسيما في أسباب نشوء القرى والمدن، الامر الذي يشجعنا على أضافة القزويني لمسيرة الفلاسفة، وهم ذاتهم الذين من المحتمل ان يكون أبن خلدون قد تأثر بهم كالفارابي وأبن سينا والغزالي وأبن رشد.

يشير القزويني إلى أسباب اضطرار الأنسان إلى الاجتماع بغيره من الناس، لكي تحصل الهيئة الاجتماعية لبقية الأفراد وينتفع بعضهم ببعض، وذلك لعدم قدرته على توفير حاجاته الضرورية منفردا مستقلا عنهم، وعليه فلن

يتمكن من العيش وحده كسائر الحيوانات، ويفصل في بيان الحلقات المتصلة بمسألة توفير الملبس والمأكل والمسكن كذلك يرى أنه متى ما فقدت حلقة منها فان الهيئة الاجتماعية سوف تختل، كالبدن الذي يفقد أحد أعضاءه فيتوقف أو يتخلخل نظام معيشة الإنسان، وفي أوجه التقارب بين طروحات ابن خلدون وطروحات القزويني، يبدو التشابه واضحا فقد لوحظ ان القزويني يحدد أسباب نشوء الخراب في البلدان مبتدأً من ظلم حكامها بقوله: " عندما يكون السلطان ظالماً يعم الظلم واللاعدالة في البلاد ويصيح الناس الضعفاء، وحقوق الناس تبطل وتكبت ويصير الحكام مدمنين على ارتكاب الشر والعمل الخاطئ، وهم يسيئون استخدام الموازين والمكاييل ويغشونها. عندئذ تتعطل وتحبس بركة السماء وينقطع هطول الأمطار؛ فتجف الحبوب وتموت الماشية، وذلك لان الحكام أحجموا عن فعل الخيرات والصدقات، وكذلك بسبب إيمانهم الكاذب الذي أستشرى بينهم وازداد وعمّ المكر والحيل بين أوساطهم "[5].

برز في عصر التنوير بأوروبا العصور الوسطى ، نموذج مؤرخ يقارب باهتماماته الاجتماعية المؤرخ هيرودوتس ألا وهو الفيلسوف والمؤرخ والكاتب والصحفي الناقد فولتير ***Voltaire***(1694–1778م)، الذي يرجع اليه أطلاق مصطلح " فلسفة التاريخ "، وسواء أكان فولتير قد تأثر بأبن خلدون ام لا؛ فإنه كان لا ينفك يصدح برأيه مغرداً بقوله: " لا أريد أن أكتب تاريخاً عن الحروب، ولكن عن المجتمعات، وأن أوكد كيف عاش الناس في دواخل أسرهم وعائلاتهم، وما هي الفنون المشتركة التي هذبوها وارتقوا بها، ان موضوعي هو تاريخ العقل البشري وليس مجرد عرض تفصيلي للحقائق الجميلة. وسوف لا ألقي أهمية على تاريخ اللوردات والأسياد، ولكني أريد ان أعرف حقيقة الخطوات التي خطا بها الناس من العصور البربرية إلى المدنية "[6].

لقد شهد العصر الحديث شغفا وحبا جماً من قبل الفلاسفة والباحثين للاتجاه الاجتماعي، حتى بلغ الأمر بفيلسوف الاجتماع الفرنسي اوغست كونت ***August Conte***(1798–1857 م) إلى ان ربط بين كلمة الاجتماع ***Society*** وبين كلمة الشعب أو القبيلة باللاتينية لتصبح مصطلح المجتمع. ولم يكتفي أوغست كونت بذلك لكنه أطلق مصطلح تسمية " علم الاجتماع " لأول مرة في التاريخ وذلك في سنة 1830 م؛ فبات " أبو علم الاجتماع " بحق والمنظر الأول في العصر الحديث. ويبدو تأثر أوغست كونت بأبن خلدون واضحاً نظرا للتقارب الشديد بين نظرياتهما فأوغست كونت هو الآخر قد شبه كما فعل ابن خلدون قبله حياة المجتمع بحياة الرجل في أطواره الثلاثة الطفولة والشباب والكهولة.

عبر أوغست كونت عن علم الاجتماع بالفيزياء الاجتماعية لكونه يدرس العادات والتقاليد والعقائد المجتمع، ويحلل طبيعة وظيفة المؤسسات السياسية والتشريعية والدينية والاقتصادية. وكان يتمنى ان يجمع في أبحاثه كل العلوم والدراسات، لا سيما تلك التي تهتم بأنماط الحياة البشرية لجميع شعوب العالم كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ، ليتمكن من دراسة الأمراض الاجتماعية وعلاجها، بمعنى انه أراد لعلم الاجتماع ان تكون مكانته بهذا التوحد مع العلوم الإنسانية، كمكانة الفيزياء لعلوم الطبيعة. لكونه يدرس العادات والتقاليد والعقائد المجتمع، ويحلل طبيعة ووظيفة المؤسسات السياسية والتشريعية والدينية والاقتصادية. وعلى العموم فان علم الاجتماع لم يتحول إلى علم

مستقل إلا بعد ان أفترض أوغست كونت له منهجاً مستقلاً وقواعد منهجية ذات أدوات بحثية وتحليلية محددة وموضوعية[7].

ان البداية الطيبة والجهود المثمرة والتعاون المرضي بين الاختصاصيين (المؤرخين وعلماء الاجتماع)، سجل انطلاقة قوية لبحوث ودراسات جديدة اكثر حداثة ؛ فادوارد شيلز ***Edward Shlis***(1910–1995 م) في أشارته إلى أهمية احتواء المواضيع والمعارف المتعددة، يؤكد بإلحاح على ضرورة توفر الدليل التاريخي لعالم الاجتماع في دراساته وأبحاثه الاجتماعية؛ قائلاً: " إن علم الاجتماع لهو جمع لشتات من الموضوعات المختلفة في موضوع واحد شامل؛ فهو علم متعدد الجوانب يضم في داخله تيارات ومواقف متعددة قد لا يربط بينها إلا أثر تاريخي قديم، أو مجموعة من الشخصيات التاريخية والمؤلفات القديمة "[8].

رأى المؤرخون بعد الحرب العالمية الثانية ان استقلالية التاريخ، إنما هي سوء فهم لشروط التقدم العلمي؛ فكل فرع من فروع المعرفة لابد لها ان تعتمد على فروع وعلوم أخرى . وكانت العوامل جاهزة لأثار الفكر الفرنسي والإنكليزي والألماني، وتحفيزهم لظهور النظريات السيسيولوجيا الجديدة ودراسة ما غفل عنه المؤرخون السابقين، وفرض على الدراسات التاريخية أن تغيّر توجهاتها وتعيد فحص فرضياتها، وأتباع مسارات بحثية غير المسارات التقليدية. ومن هنا انبثقت فكرة التاريخ الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية بعد سنة 1955م، وكان المقصود به ان يكون تاريخاً شاملاً يهتم بكل الفعاليات البشرية، وتكون القاعدة الأساسية له هي الاستعانة بعلم الاجتماع [9].

المصادر والمراجع :

1- سارتون، جورج: تاريخ العلم ، ترجمة ابراهيم بيومي مدكور ومحمد كامل حسين وقسطنطين زريق ومحمد مصطفى زيادة، دار المعارف المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976 م، ج 1، ص ص 155 – 264، ج 2، ص ص 166 – 167 .

2- محسن، حاتم حميد: جدلية التماثل بين الروح والدولة في جمهورية أفلاطون، صحيفة المثقف، العدد 4010، لسنة2017 م .

3- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ/864م):

أ- الرسائل، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ/ 200 م، ج 1، ص ص 243، 248 – 249 .

ب- الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثانية، 1424هـ/2003م .

ج- البخلاء، منشورات مكتبة النهضة، بغداد .

4- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي(ت421هـ/1030م): تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق نواف الجراح، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص ص 94 – 95، 98 .

5- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت682هـ/1283م): آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر، بيروت، ص ص 7 – 8 .

6- ديورانت، ويل: قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة، 1408هـ/1988م، ص ص 274 – 275 .

7- بيار، مالك: دروس من الفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع اختلاف وتقارب، موقع منتديات الجلفة، لبنان .

8- خضر، عبد العليم عبد الرحمن : المسلمون وكتابة التاريخ دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1415هـ/1995م، ص 49 .

9- باركلو، جفري: الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1404هـ/1984م، ص ص 53 – 54، 64 .